الفصل الثامن

بنو أمية (الفرع الحكمى)

٦٣ — ٨٦ هـ ٦٨٣ — ٧٠٥ م

مروان بن الحكم — انتخابه رئيساً لبنى أمية — موقعة مرج راهط مصر — خيانة مروان — التوابون — وفاة مروان — عبد الملك حاكم الشام — مقتل الحسين — مقتل المختار — مصعب — غزو العراق — موت مصعب — عبد الملك يغزو العراق — حصار مكة مقتل عبد الله بن الزبير — الحجاج الطاغية — التوسع فى أفريقيا الحروب مع الروم — الخوارج — موت عبد الله

مروان بن الحكم

ولما توفى معاوية أفضت الخلافة من بعده إلى أخيه خالد ، وكان لا يزال حدثا فرفض الأمويون مبايعته ، برغم ما كانوا عليه وقتئذ من شدة الارتباك والفوضى ، وراحوا يطالبون بتولية كبير منهم حسب العرف القبلى ، كذلك بلغ من تفكك أواصرهم فى ذلك الحين أن فكر « مروان » رئيس الأسرة وزعيمها الأوحد فى مبايعة « عبد الله بن الزبير » بالخلافة ، بالرغم مما كان ينطوى على مبايعته من زوال السلطة من أيديهم ، غير أن « عبد الله » لشدة حذره وحيطته أحجم عن الزحف على الشام مكتفيا بنشر سلطانه على جزيرة العرب ، ومصر ، وخراسان . ويقول لنا المؤرخون : إنه بينما كان « عبد الله » مصراً على البقاء فى مكة على هذا النحو ظهر « ابن عبيد الله » فى البصرة محاولا الدعوة لنفسه ، غير أن أهلها ثاروا عليه وأجبروه على الفرار إلى الشام ، حيث أشار على مروان بأن يدعو لنفسه بالخلافة ، بصفة كونه عميد البيت الأموى . ولا يخفى أن الأمويين كانوا فى ذلك الحين منشقين على أنفسهم ، كما كان الحميريون فى الشام يحقدون على المضريين لتفوقهم وعلو كلمتهم . غير أن الشيخوخة مع ذلك لم تكن

قد نالت بعد من دهاء « مروان » ولا من براعته فى حياكة المؤامرات ، فاستطاع أن يستميل إليه خالداً بن يزيد وعمرو ابن عمه بعد أن وعدهما بولاية العهد ، كذلك رشا الحميريين فى الشام ، وأسبغ على زعمائهم العطايا والمنح .

وهكذا تمكن فى نهاية الأمر من القبض على أعنة الحكم ؛ ويقول المسعودى : « إن مروان كان أول من دخل الناس فى طاعته بحد السيف » ؛ كما تقول لنا الرواية العربية إنه بعد أن اطمأن إلى الحميريين فى الشام زحف على زعيم المضريين[١] الذى كان قد انضم إلى صفوف « عبد الله بن الزبير » ، وتقابل الفريقان فى موقع يسمى « مرج راهط » على بضعة أميال من الشمال الشرقى من دمشق ، وكانت المعركة الأولى سجالا بالرغم من كثرة عدد الحميريين ، غير أن مروان لم يلبث أن فتك بالضحاك ، ثم هجم على المضريين وظل يوقع بهم حتى ألحق بهم هزيمة منكرة ، وعندئذ قدمت له الشام طاعتها ، ثم حذت مصر حذوها بعد قليل .

موقعة مرج راهط

وإن ننسى لا ننسى أن مروان بعد أن استتبت له الأمور نقض عهده مع خالد ، كما أرغم عمرو ابن عمه على التنازل عن ولاية العهد لولدى مروان « عبد الملك » وعبد العزيز .

ولا شك أن معركة « مرج راهط » أثارت دفين الأحقاد التى كادت تزول بين الحميريين والمضريين ، كما أخذ الحميريون بعد أن رجحت كفتهم يسومون منافسيهم أروع صنوف الاضطهاد ، وبقى الحال على هذا المنوال طيلة عهد « عبد الملك بن مروان » تشتد تارة وتخمد أخرى .

وفى تلك الأثناء رأى رهط من العراقيين — الذين هالهم التفريط فى نصرة الحسين وآل بيته فى موقعة كربلاء — أن ذلك الجرم الفظيع لا يغسل عنهم إلا بالانتقام من قتلته ، فاجتمعوا ذات ليلة على قبر الحسين وأقاموا الصلاة ،

(١) هو الضحاك بن قيس الفهرى .

وذكروا أنهم قد تابوا إلى الله وأنابوا إليه ، وأطلقوا على أنفسهم اسم التوابين ، ثم ساروا فى صباح اليوم التالى بقيادة زعيمهم « سليمان بن صرد الخزاعى » لمحاربة جيش الشام ، ودارت بين الفريقين معركة رائعة انتصر فيها التوابون فى بادئ الأمر فى عدة مواقع ؛ غير أن جيش مروان لم يلبث أن حمل عليهم حملة منكرة ، ومزقهم شر ممزق ؛ فاستشهد قائدهم « سليمان بن صرد » وعدد غير قليل من أمرائهم ، وارتحلت البقية الباقية منهم إلى الكوفة حيث ظلوا قابعين إلى أن ثاروا مرة أخرى بقيادة« المختار بن عبيد الثقفى » .

وفاة مروان

انتهت بوفاة مروان حياة مليئة بالعنف والمؤامرات . ويقال إن زوجه (أرملة يزيد) هى التى قتلته خنقاً ، وذلك أنه كان قد تزوج منها ليأمن جانب ابنها « خالد » وينال مؤازرة جماعته ، ولكنه لم يلبث أن أهانه وأغلظ له القول بعد أن حرمه ولاية العهد ، فثارت الأم لكرامة ابنها المهيض الجناح وقتلته ، ولا يعتبر مروان فى نظر أهل السنة من جملة الخلفاء الراشدين ، بل يعده كتابهم ثائراً على « عبد الله بن الزبير » الذى بويع بالخلافة من على منابر أنحاء العالم الإسلامى ما عدا الشام .

خلافة عبد الملك ابن مروان

بويع « عبد الملك » على أثر وفاة أبيه بإجماع آراء آل أمية ، وكان صورة حية للخلق الأموى ، يجمع إلى النشاط وذكاء الفؤاد روح التآمر وثبات الجنان ، فاستطاع أن يوطد ملكه ويدعم مركزه بمهارة لا يضاهيه فيها أحد . وفى تلك الأثناء شق « المختار » عصا الطاعة فى العراق وأخذ ينكل بقتلة « الحسين » شر تنكيل ، فأرسل « عبد الملك » إليه جيشاً كبيراً بقيادة « عبد الله بن زياد » واشتبك الفريقان فى معركة رائعة ، أسفرت عن انهزام جيش « عبد الملك » وقتل قائده عبد الله الذى حز رأسه ، وحمل إلى « المختار » ولكن لم يلبث هؤلاء التوابون برغم انتصارهم أن انقسموا على أنفسهم وتفرقوا

شيعاً صغيرة ، فسار إليهم « مصعب بن الزبير » أخو عبد الله ، ونائبه فى العراق وأوقع بهم شر إيقاع ، ثم فتك برئيسهم .

وبهذا النصر أصبح مصعب رجل الساعة ، وغدا سلطان ابن الزبير فى العراق وما بين النهرين لا ينازعه فيه أى منازع ، كما قدمت إليه خراسان طاعتها ؛ بيدأن حكمه لم يكن موطد الأركان ، وذلك أن أهل العراق كانوا قد وطنوا أنفسهم على الغدر به بتحريض من عبد الملك الذى كان يكاتبهم ويرغبهم فى بيعته . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن جنود عبد الله كانت قد أنهكتها الحروب المتواصلة مع الخوارج الذين تدفقت جموعهم من الصحراء على كلدة ، وجنوبى فارس ، ينكلون بأهلها أشنع تنكيل ، ولا ننسى كذلك أن هؤلاء الغلاة المتعصبين ارتكبوا فى حمّى هوسهم الدينى أشنع الجرائم وأشدها هولا ، طبقاً لنظام محكم انتقاماً لأنفسهم . ويسوق لنا المؤرخون العرب حادثة تتعلق بالحج عام ٧١ هـ ، وهى دليل ناهض على تفرق كلمة المسلمين فى ذلك الموسم ، إذ كانوا قد اجتمعوا على جبل عرفات تحت أربع رايات مختلفة : واحدة لعبد الله بن الزبير ، وأخرى لعبد الملك بن مروان ، وثالثة لمحمد بن الحنفية ، والرابعة للخوارج الثائرين : وكان كل فريق منهم يضمر للفريق الآخر العداء ، غير أنه لم يقع لحسن الطالع أى اعتداء بالرغم مما كان يجيش فى صدورهم من الضغائن والأحقاد .

أما « عبد الملك » فلم يكد يقضى على خصومه ويصفو له جو الشام حتى ثار عليه « عمرو بن سعيد » ، ونادى بنفسه خليفة للمسلمين ، وعندئذ أسرع « عبد الملك » إلى دمشق وطفق يحتال عليه حتى صالحه ثم فتك به وهو فى قصره ثم سار بجيشه إلى بلاد ما بين النهرين وكلدة لمحاربة عاملها « مصعب بن الزبير » ؛ ومما شجعه على هذا الزحف أن العراقيين تألبوا وقتئذ على « مصعب » وعادوا أدراجهم إلى الكوفة ؛ وما هى إلا فترة وجيزة حتى اشتبك الفريقان فى معركة

رائعة أسفرت عن قتل «مصعب» وولده يحي[1] وإبراهيم بن الأشتر النخعى ، وبذلك تم إخضاع العراق للأمويين للمرة الثانية .

وبعد أن سحق « عبد الملك » جيش مصعب نهائيا تفرغ لعبد الله بن الزبير بالحجاز ، وأنفذ إليه جيشاً كبيراً بقيادة الحجاج الذى غشى المدينة واستولى عليها دون مقاومة تذكر .

ثم زحف على مكة وحاصرها للمرة الثانية ، كما رمى الكعبة بالمنجنيق وألحق بها خسائر فادحة . وتقول لنا الرواية العربية إن عبد الله أبلى فى ذلك الحصار بلاء حسناً ، إذ كان يحمل وحده على جيوش الشام ويعمل فيهم السيف حتى يزيلهم عن مواقعهم ويردهم على أعقابهم ؛ ولكن الحجاج لم يلبث طويلا أن طوق مكة تطويقا عاما حتى تجرع أهلها ألم الجوع ، وأخذوا ينفضون من حول ابن الزبير زرافات ووحدانا . ويقال إنه لم يبق معه إلا نفر قليل من أصحابه وعندئذ تملك قلبه اليأس ، ودخل على أمه « أسماء » بنت أبي بكر الصديق يستشيرها فى أمره ، فقالت له تلك السيدة العجوز المفعم قلبها بروح البطولة العربية : « أى بنى ! لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة القتل ، مت كريما ، وإياك أن تؤسر أو تعطى بيديك » ، ثم بددت مخاوفه من أن يمثل به عدوه ، قائلة لا يهم ما يحل بالجسد ، بعد أن تصعد الروح إلى خالقها « وهل تتألم الشاة من السلخ بعد الذبح ؟ » . وعندئذ طبع على جبينها الوضاء قبلة الوداع واستل سيفه وحمل على أعدائه حملة صادقة ، وظل يضرب فيهم حتى فروا من أمامه ، ولكنهم تكاثروا عليه أخيراً وفتكوا به . والعادة أن يحترم الإنسان عدوه بعد مصرعه ، غير أن جيش الشام تجاهل أوامر الرسول التى تقضى باحترام

(١) كان اسم ولده « عيسى » وليس « يحي » ويعرف عن أبيه مصعب أنه لما تخلى عنه جميع أصحابه قال لابنه : يا بنى اركب فانج ، والحق بعمك بمكة فأخبر ما صنع بى أهل العراق ، ودعنى فإنى مقتول لامحالة . فقال له عيسى : لا والله ، لا يتحدث بنا قريش أنى فررت عنك . (المعرب)

الموتى ، وأبوا على أمه أن تدفنه . وقد بلغت بهم روح الشراسة المعروفة عن ذلك العصر أن أمر به الحجاج فصلب[١] بمكة وحملت رأسه مع رأسى اثنين من أصحابه إلى دمشق بعد أن عرضها مدة فى المدينة . و يعرف عن عبد الله أنه كان متحلياً بكثير من الخصال الحميدة ، فكان طموح القلب ، شديد الدهاء ، شجاعا نزيهاً عادلا ، وهى ميزات تفوّق بها على كثير من أقرانه ، غير أن النقص الوحيد الذى يعاب عليه هو شدة بخله ؛ ولعل هذا النقص هو الذى أدى به إلى التهلكة ؛ إذ بينما كان الحجاج على أبواب مكة يحاصرها و يضيق عليها الخناق كان ابن الزبير يأبى دفع رواتب جنوده و يرفض شراء المواد الحربية لهم .

عبد الملك على رأس الإمبراطورية

و بإخضاع مكة أصبح « عبد الملك » رئيس الإمبراطورية الإسلامية دون منازع . وقد علم هذه الحقيقة المهلب بن أبى صفرة عامل عبد الله بن الزبير على جنوبى فارس ، وأدرك بثاقب فكره أن المقاومة لا تجديه نفعاً ، فعرض طاعته فى الحال . أما والى خراسان وكان أقل حنكة من المهلب فقد استكبر وأجبر رسول عبد الملك الذى كان قد أوفده ليأخذ له البيعة أن يبلغ الرسالة و يعود أدراجه إلى دمشق .

وفى أثناء تلك الفتن والمعارك التى دارت رحاها بين « عبد الله » و « عبد الملك » تقوت شكيمة الخوارج ، وأخذوا ينتشرون فى أنحاء جنوبى إيران وكلدة ، ولكنهم ظلوا مع ذلك محافظين على هدوئهم حتى استفزتهم الاضطهادات التى كانت تقع عليهم من عمال الأمويين ، فشقوا عصا الطاعة ، وراحوا يقاتلون بوحشية عجيبة ، واستهتار لا مثيل لها ؛ والغريب أنهم على قلتهم كانوا يغلبون أكبر قوة من جيوش « عبد الملك » فى المعارك التى كانت تنشب بينهما من حين لآخر ؛ غير أنهم بالرغم من هذه الشجاعة النادرة المثال ،

---

(١) جاء فى مختصر الدول : « أن الحجاج تمادى فى الانتقام من ابن الزبير فسلخ جلده ، وحشاه تبناً وصلبه » . (المعرب)

والاستبسال المدهش لم يوحدوا صفوفهم ، أو يجمعوا كلمتهم[١] . فكان البعض منهم يقول بالعودة إلى عهد عمر بن الخطاب برئاسة خليفة ينتخبه المسلمون ، على حين كان البعض الآخر يرفض تأليف أية حكومة مكتفياً بإجراء حكم الله وتصريف الأمور بمعرفة أهل الشورى ؛ ولكن جيش الخليفة بعد عدة معارك رائعة معهم هزمهم شر هزيمة ونكل بهم ، وقد أثبت لهم « المهلب » حاكم فارس بأنه خصم قوى وجندى عنيد ، وهى مزايا عسكرية عرفها فيه « عبد الملك » ؛ وقصارى القول أنه هزمهم وهدم قلاعهم ، وأعمل السيف فى رقابهم حتى أجبر من بقى منهم حيا على الاعتصام بصحراء الإحساء .

الحروب مع الروم

أما الروم فقد انتهزوا فرصة وقوع تلك الفتن الداخلية وأخذوا يشنون الغارات و يزحفون بجحافلهم على الممتلكات الإسلامية ، غير أن عبد الملك استطاع أخيرا أن يزيحهم من مواقعهم إلى خارج الحدود ، و يستولى منهم بعد سلسلة معارك على قسم كبير من إمبراطوريتهم ، كما أخضع المناطق المتاخمة لكابول الحالية ، والتى كان يحكمها عندئذ أمير هندى اسمه رابتيل ، ولا ننسى أنه استولى فى الوقت نفسه على قسم كبير من شمالى أفريقيا .

إعادة الاستيلاء على بلاد البربر

أما قصة استيلاء العرب على أفريقيا فهى فى الواقع مليئة بالحوادث الرائعة والمفاجآت المدهشة ، ففى عام ٦٩٣م (٦٩هـ) أرسل عبدالملك جيشا لإعادة الاستيلاء على البربر — أفريقيا — برئاسة « زهير » الذى استطاع منذ وفاة « عقبة » أن يلحق بالعدو هزائم منكرة ، كما أوقع بجيش الروم والبربر هزيمة رائعة فى أول معركة اشتبك فيها بصورة جدية ؛ غير أنه لسوء الطالع ارتكب خطأ فاحشا ، وذلك أنه أرسل قوة كبيرة من جيشه لاحتلال البلاد التى لم يتم فتحها بعد ، دون أن

---

(١) اتفق الخوارج على إكفار عثمان بن عفان وعليا بن أبى طالب ، والخروج على الإمام الجائر ، وتكفير من ركب الكبائر والبراءة من الحكمين أبى موسى الأشعرى وعمرو ابن العاص ، والبراءة ممن صوب حكمهما ، وإكفار معاوية ومناصريه ومقلديه ومحبيه ، ثم اختلفوا بعد ذلك فى التوحيد والوعد والوعيد والإمامة . (المعرب)

يحتفظ بقوة كافية فى « برقة » التى كانت تعتبر مركزا للقيادة العربية ؛ فما كاد جيشه يبتعد عن المركز الرئيسى حتى باغتت حامية « برقة » قواتٌ هائلة من الجيش الرومانى ، فدارت بين الفريقين معركة رائعة ، أبدى فيها العرب شجاعة منقطعة النظير ، ولكن الجنود الرومانية تغلبت عليهم أخيرا ومزقت شملهم فى موقعة حاسمة قتل فيها « زهير » القائد العربى الباسل .

وهكذا فلتت بلاد البربر من أيدى المسلمين ، غير أن إصرار «عبد الملك» إذا ما انتوى أمرا من الأمور — وهى الصفة التى ساعدته على التغلب على منافسيه — جعلته يبعث إليهم بجيش ثالث على رأسه « حسان بن النعمان » فاجتاح بلادهم مكتسحا أمامه كل مقاومة ، ثم استولى على مدينة القيروان ثانية وهدم مدينة قرطاجنة . ولكن لم تكد تمضى مدة وجيزة حتى اتحد البربر مع الروم واشتبكا مع العرب فى معركة رائعة أسفرت عن هزيمتهما هزيمة منكرة ، وهكذا عقد لواء النصر للعرب ثانية ، وأصبحوا سادة البلاد الحقيقيين من أسوار برقة حتى شواطئ المحيط الأطلسى .

وفى تلك الأثناء كانت قبائل البربر وقبائل صحراء الأطلس الوحشية تدخل أفواجا فى طاعة امرأة يطلق عليها المؤرخون اسم «الكاهنة» ، وكان المعتقد أنها قد أوتيت قوة خارقة للعادة ، فانضوى تحت لوائها جيوش جرارة من القبائل الوحشية وانقضت بهم على الجيش العربى الظافر ، وهزمته هزيمة منكرة فى عدة مواقع حتى أرغمت القوة الرئيسية على الانسحاب للمرة الثانية من برقة ، وبسطت سيادتها على أفريقيا طوال خمسة أعوام لا ينازعها فى سيادتها أى منازع .

وفى عام ٧٩ هـ بعث « عبد الملك » بجيش آخر لمساعدة « حسان » فكان أحد الفريقين المتحاربين فى ذلك الحين ، وهو الجيش العربى لا يمتلك تلك المدافع الضخمة ، ولا البنادق السريعة الطلقات التى نعرفها فى العصر الحاضر ، بينما كان الفريق الآخر « جيش البربر » مجهزاً كذلك ببنادق عاطلة من الطراز

القديم ، ولهذا كانت كفتا الطرفين فيما يخص السلاح متكافئتين ، و إن كان العرب يفوقون خصمهم فى العتاد والإدارة وحسن النظام ، كما كانوا يمتازون بالشجاعة وعلو الهمة والمثابرة وقوة الإيمـان والاعتداد بالنفس والبسالة ، وهى صفات قلّ أن نجد لها مثيلا فى الشعوب الأخرى .

اخترق جيش عبد الملك صفوف الأعداء المتراصة كما تخترق السفينة عباب البحر المتلاطم الأمواج ، ولـكى تحول الـكاهنة دون تقدم العرب عن الزحف وتحرمهم من مغريات الثروة التى يترقبون الاستيلاء عليها فى المدن ، عزمت نهائيا على أن تحوّل تلك البـلاد الزاهرة والحدائق الوارفة الظلال إلى خراب بلقع ؛ فأمرت بهدم القصور الشامخة وتقويض القصور العامرة ، فأصبحت المدن والقرى خرابًا يبابًا ، وقلعت الأشجار ودمرت الرياض والغياض حتى غدت تلك الجنان أرضاً قفراء موحشة . وقد سمى المؤرخون الغربيون هذا العمل بأول خراب حل بأفريقيـا متناسين أعمال التدمير المنكرة التى حلت بالبـلاد على أيدى الرومان . ومهما يكن من شىء فإن هـذه الأعمال الوحشية لم تغن عن الكاهنة فتيلا ، إذ أن أهالى البلاد اعتبروا القائد العربى مخلصهم الوحيد ، وسارعوا إلى عرض طاعتهم عليه معبرين له عن ولائهم ، أما الكاهنة فقد منيت بهزيمة منكرة وقتلت فى الموقعة الدموية التى دارت بين الفريقين عند أقدام جبل الأطلس .

وعند ما تشتت شمل البربر وأيقنوا بشدة بأس الجيوش العربية ومثابرتهم على القتال عرضوا الصلح على القائد حسان ، فأجابهم إلى طلبهم على أن يمدوا الجيش الإسلامى بخمسة وعشرين ألف مقاتل . وعلى أثر الفتح بدأ الإســلام ينتشر بسرعة عجيبة بينهم . ولسوء الطالع أخذ سيل الخوارج بعد أن طردوا من فارس و بلاد العرب يتدفق بكثرة على أفريقيا ، فوجدوا فى البربر وفى شعورهم وأفـكارهم مرتعا خصيبا لمبادئهم الفوضوية وأفكارهم الرجعية ، ومقتهم لحـكومة

دمشق . وأصبح هؤلاء الخوارج[1] دعاة التفرقة والإلحاد — الذين كان يتصيدهم عبد الملك وعماله — قادة أعداء العرب ؛ و إلى هؤلاء و إلى تعاليمهم تعزى ثورات البربر الذين كانوا يرفعون علمها من حين لآخر .

الحجاج بن يوسف

ولى الحجاج العراق وسجستان وكرمان وخراسان ، وضمنها كابول و بعض أنحاء ما وراء النهر . وكان ثمة حاكم آخر اسمه هشام بن إسماعيل يحكم غربى شبه جزيرة العرب ، فى حين كان يحكم مصر عبد العزيز أخو الخليفة عبد الملك بن مروان . وقد أدى إسراف الحجاج فى الشدة و إراقة الدماء إلى نشوب ثورات عديدة ، رفع علم بعضها عبد الرحمن بن الأشعث ، الذى كاد يفلح فى دك عرش عبد الملك لولا كثرة جنود الخليفة وصبرهم على القتال ، فانهزم جيش ابن الأشعث[2] وفرت البقية الباقية منهم إلى أقصى البلاد .

يعرف عن « الحجاج » أنه سام أهل الحجاز أروع ضروب العسف والجور ، وأساء معاملة من بقى حياً من الصحابة الأولين ، كما يقال إنه فكر ذات مرة فى دك منازل المدينة ؛ وقد أحصى المؤرخون عدد الذين سفك دماءهم فى زمن حكمه على العراق فوجدوه مائة وخمسين ألف رجل ، ويقال إنه مات وفى حبسه ٢٥٫٠٠٠ رجل وامرأة[3] . ويقول المسيو سيديلو المؤرخ المشهور : « إن هذه المذابح التى كانت ترتكب بالجملة بلغ من تأثيرها أن أضعفت العنصر العربى لقضائها على أنبل الرجال محتداً وأشرفهم غاية وأعظمهم كفاية » .

وفى عام ٧٠٣ م مات المهلب مدوخ الخوارج ، وهو الذى كان قد استعمله الحجاج على خراسان . ويقول الشاعر العربى[4] فى رثائه : إن بموته انطفأ سراج

---

(١) يلوح أن المهديين الذين ظهروا فيما بعد فى أفريقيا من أحفاد هؤلاء الخوارج .

(٢) يقول المسعودى : « انتهى ابن الأشعث إلى ملوك الهند ؛ ولم يزل الحجاج يحتال فى قتله حتى قتل وأتى برأسه منبر الكوفة » . (المعرب)

(٣) فى معظم كتب التاريخ أنه مات وفى حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة ، وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد .

(٤) يشير المؤلف إلى الأخطل الذى قال فيه : =

الوفاء . وقد خلفه فى منصبه ابنه يزيد ، وأبدى له الحجاج حيناً نفس الرعاية التى كان يبديها لأبيه « المهلب » .

وفاة عبد الملك ٧٠٥ م

توفى عبد الملك عام ٨٦ هـ وهو ابن ٦٢ سنة ، وكان محبا للشعر ، وبالأخص ما نظم منه فى امتداحه والإشادة بذكره ، وكان من أبرز صفاته البخل ، والصرامة . ويقول المسعودى : « إن عملاءه حذوا حذوه فى الاستهتار بسفك الدماء » . وقد كان فى شبابه ورعا ، تقيا ، معدوداً من فقهاء المدينة ، ولكنه عند ما بلغه خبر وفاة أبيه ، وكان يقرأ القرآن الكريم أطبقه فى الحال ونهض قائلا : « هذا آخر عهدى بك » . ويقال إنه أول من غدر فى الإسلام[1] ، وأول من نهى عن التكلم فى حضرة الخليفة ؛ وقد قال ذات مرة وهو على المنبر : « من قال لى بعد مقامى هذا اتق الله ضربت عنقه » ، فكان يشبه شرلمان فى أوجه كثيرة من أخلاقه ، إذ كان عادلا على ألا يتعارض هذا العدل مع مطالبه وتحقيق غاياته ، قوى العزيمة ، ثابت الجأش ، لا تزعزعه الشدائد ، بيد أنه كان أقل صرامة من شرلمان ، فلم يكن ليرضى أبداً أن تقترف تحت سمعه و بصره أعمال قاسية كذبحة الفرسانيين أو السكوسونيين . ولو قيس « عبد الملك » بشرلمان أو بطرس الأكبر إمبراطور الروس لعدّ من أصحاب القلوب الرحيمة ؛ ودليل ذلك أنه قبل أن يشتبك فى القتال مع مصعب والثوار الآخرين بقيادة عبد الرحمن عرض عليهم الصلح عدة مرات . وتعزى قسوته ونكثه بالعهود إلى شدة رغبته فى تأييد ملكه وتحقيق غاياته ، ولكن ذلك على كل حال لا يصلح عذراً ولا يعفيه من المسؤولية المترتبة عليه فى إسراف الحجاج فى جوره ، وإن كان قد تدخل فى بعض الأحيان لحماية التعساء الذين كان يلقيهم الدهر بين

= فما لسرير الملك بعدك بهجة ولا لجواد بعد جودك جود

(المعرب)

(١) مما يؤخذ على عبد الملك غدره بعمرو بن سعيد وقتله إياه بعد أن أمنه .

(المعرب)

براثن الحجاج . وقد كان أول من أسس داراً لضرب النقود فى الدولة الإسلامية وقد حافظ الخلفاء من بعده على صيانة قيمة العملة وحالوا دون تزييفها . وكانت سجلات الخراج ومختلف الضرائب قبل عهد عبد الملك تكتب باليونانية أو الفارسية ، فأمر بنقلها إلى العربية .

وقبل وفاته بمدة وجيزة حاول إقناع أخيه عبد العزيز أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد ، فرفض هذا رفضاً باتاً ، ولكنه لم يمكث طويلا حتى وافته منيته فبويع الوليد بالخلافة فى جوٍ تسوده روح الهدوء والاطمئنان .

معاصر عبد الملك فى القسطنطينية

وكان يعاصر عبد الملك فى القسطنطينية « يوستنيان الثانى » بن بوكاتوس الذى طلب إليه شعبه حينما عاد من المنفى أن يعفو عن أعدائه فصاح قائلا : أتسألوننى عن الصفح ! إننى لأفضل الموت هذه اللحظة ، بل إنى لأوثر الغرق فى اليم إن أنا أبقيت على حياة أعدائى !